التنـــاقض
فى كتاب النثر الفنى
للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

تقدم فيما أسلفنا من كلمات مثَل من تناقض صاحب النثر الفنى ، لكن القام فى تلك الكلمات لم يكن يسمح بالتنبيه إلى ذلك التناقض إلا عرضاً . فلعل من الخير الآن أن ننبه إلى بعض ما فاتنا التنبيه إليه هناك

وأول ما نحب التنبيه إليه من هذا تناقضه فى موقفه من المأثور من النثر الجاهلى . فبينا هو ينفيه ويغالى فى موقف ، إذا هو يثبته ويؤكده فى موقف ، فهو ينفيه نفياً بتاً فى قوله :

« وما نقله الرواة من النصوص لا يكفى لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى ... وهو على قلته مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية » ص ٣٥ : أول : ثم يؤكد ذلك فى صفحة ٣٧ إذ يقول :

« وإذا كان الشعر الجاهلى مهدداً بمثل هذا الرفض مع اتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع عناية الرواة والحفاظ والناسخين ، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نسب إلى الجاهليين من النثر مع أن عناية الرواة به قليلة ، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم لقلة التدوين » لكنك تقرأ له فى صفحة ٥٢ ما ينقض هذا من أساسه إذ يحدثك :

« فأنا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهلى واسع النطاق ...

يقولون : وأين آثار ذلك الأدب الجاهلى ؟

وأجيب : بأن ذلك الأدب قد ضاع أكثره حتى ليصعب أن نتخذ منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية واجتماعية ودينية

وهنا يبتسم المنكرون قائلين ومن يدرينا أنه كان هناك أدب ضاع ؟

وعند هذه المفاجأة نجد الجواب ، لأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين ، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثانى والثالث فقد عرفوه وتدارسوه » !

ولكن أمراً واحداً يستوقف النظر ، هو أن الذين ذكروا مقتل المتنبي ذكروا أن محسداً قتل معه ، فنحن نعرف من ذلك أن محسداً كان يصحب أباه فى عوده من فارس إلى العراق ، ولكننا لا نعرف السن التى كان فيها محسد ، كما إننا لا نعرف أين كانت أم محسد فى ذلك الحين . على أننا نستطيع التأكد من أنها لم تكن تصحبه فى تلك الرحلة القاتلة ، لأنها لو كانت تصحبه وقتل زوجها وولدها لسمعنا عنها خبراً ، ولروى أبو نصر الجبلى للخالدين عنها شيئاً ؛ فياليت شعرى هل كانت لا تزال على قيد الحياة تنتظر أوبة زوجها وولدها وتستعد لاستقبالهما بعد الغياب الطويل ؟ هل كانت أم محسد فى الكوفة تترقب عودة أبى محسد ومحسد فتبثهما لواعج الوجد والشوق وتفضى إليهما بما فى الصدر من هوى وحنين ؟ أم كانت فى مكان آخر تستطلع أخبار الغائبين العزيزين متوقعة ما يحملانه لها من مجد ورفاه ومال ؟ أجل هل كانت حية تنتظرهما أم كانت ميتة من عهد بعيد أو قريب فلم يفجعها موتهما الدامى ؟

كل ذلك سر فى ضمير التاريخ لم يكشف عنه لأحد . ولكننا نتساءل : هل يمكن أن تموت فى حياة زوجها ، ثم لا يرثيها بكلمة ولا يبكيها بقصيدة بعد أن رأينا شدة تفجعه على جدته وطول حرقته لموتها ، ونحن يعنينا فى مقالنا هذا أن نعرف مدى تأثيرها فى حياة المتنبي وفى شعره ، وبعد كل الذى مر ندرك أننا لا يمكن أن نجد لها أى أثر فى حياته ولا فى شعره

أما ما كان من تأثير الحبيبة فى المتنبي فذلك ما سنجيب عليه فى مقال تال .

(البناطية — بلاد القلم)

حسن الأمين

ثم يعود فيؤكد هذا فى صفحة ٥٣ إذ يقول : « أنا أقول بأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين ، أما المتقدمون فكانوا يعرفونه ويروونه ويتجرون به فى الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك

فصاحب النثر الفنى يثبت هنا ما كان قد نفى وأنكر هناك من وجود نثر جاهلى صحيح عرفه القدماء الإسلاميون وتدارسوه ، واستنتجوا منه ما استنتجوا ، وحكموا عليه وله بما حكموا . وهو بهذا يهدم كل ما بنى ورتب على فقد النثر الجاهلى من نحو إهماله آراء القدماء وحكمهم فى نثر الجاهلية ، واضطراره إلى الرجوع إلى القرآن لاستنباط صفات ذلك النثر ، بقطع النظر عن رأى صاحب النثر الفنى فى القرآن . أما كيف ، وقد كان ذلك النثر موجوداً مدروساً فى القرون الثلاثة الأولى ، أمكن أن يندثر ويضيع فى القرن الرابع والقرون بعده ، فذلك ما لا فائدة فى التسآل عنه أو النظر فيه عند صاحب الكتاب

وموقف صاحب الكتاب من أمية العرب فى الجاهلية يشبه موقفه من النثر الجاهلى ، فهو يقضى فيها بما يلائم غرضه فى كل مقام . إذا أراد أن يهدم ما بناه الأقدمون على أمية العرب شكك فيها ثم نفاها ، حتى إذا أراد أن يحتج لبعض مزاعمه التى ينقضها نفيه الأمية عن عرب الجاهليـة أثبتها وأشاعها

فهو يشكك فيها حين يريد أن يثبت لهم أدباً مكتوباً فى الجاهلية إذ يقول : « وهذا الذى أقوله يحملنا على الشك فى التقاليد التى جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أميين بدرجة خطيرة ، وأنهم لذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئاً يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم »

وهو ينفيها عنهم حين يثبت لهم فى الجاهليـة علوماً ونهضة لا تقوم إلا على الكتابة والكتّاب كما ترى فى قوله : « وظهور كتاب كالقرآن فى أى لغة يدل على أنها تعدت طور الطفولة منذ أزمان ، واللغة حين تصل إلى عهد القوة والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقييد ما يعرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والغموض » ص ٤٨ وفى قوله : « وإنما أرجح أن يكون العرب فى جاهليتهم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبية . ألسنا نرى القرآن يجرى على نمط واحد فى أوضاعه النحوية لا يختلف فى ذلك إلا باختلاف رواته من القبائل المختلفة » ص ٥٥

وفى قوله : « ونتيجة ما سلف أن العرب فى جاهليتهم اهتموا بالنثر الفنى اهتماماً ظهر أثره وعرفت خواصه فى خطب الخطباء ورسائل الكتاب » ص ٥٦

فاقرأ له واعجب إذ يقول بعد ذلك مباشرة : « ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التقييد والتدوين لشيوع الأميـة فيهم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتماماً جدياً بتدوين البديع ، فكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين فى هذا الفن الجميل » هـذا يقوله فى مقام يريد فيه أن يجعل البديع كالنحو علماً معروفاً فى الجاهلية كما هو صريح كلامه فى صفحة ٥٦ ، فلما لم يجد دليلاً أو شبه دليل على ذلك علله بإهمال التقييد والتدوين لشيوع الأمية فى عرب الجاهلية ، ناسياً ما كان ادعاه لهم من قبل من وجود علماء كاتبين يهتمون بتقييد العلوم

ومثل آخر من اضطرابه وتناقضه ما كتب فى القرآن وأثره فى أهل العصر الأول ؛ فهو فى صفحة ٥٨ يروى فى الهامش رأى المسيو مرسيه من أن العرب كانوا يتجنبون محاكاة القرآن وأن القرآن لذلك لم يؤثر فى نثرهم الفنى تأثيراً يذكر . وقد وافقه بحق على تجنبهم المحاكاة وخالفه بحق كذلك فى إنكاره تأثرهم بالقرآن إذ يقول : فإن ذلك — أى تجنبهم المحاكاة — لا ينافى تأثرهم به وتأثيره فيهم ، فإن هنـاك عدوى روحية تمس القلب والعقل وتصبغ الآثار الأدبية بصبغة ما يقرأ المرء أو يسمع وإن تكلف العرب وحسب نفسه بمنجاة من المحاكاة والتقليد » فهذا صريح فى أنه يرى أن تأثرهم بالقرآن كان غير مباشر ، أى كان رغم تكلفهم العرب عن المحاكاة والتقليد . لكنه يرجع بعد ذلك فى صفحة ٦٠ فيقول توصلاً إلى تخطئة بعض مخالفيه « والقرآن أساس المنهج الكتابى لذلك العصر — عصر الصدر الأول — بلا شك » فينقض بهذا ما واقق وما خالف به .